حفصة بنت الحاج

يمثل الدور الذى لعبته المرأة فى الأندلس فى جوانب الحياة المختلفة ، وفى مجال الإبداع الأدبى بخاصة ، جانباً مشرقاً من تاريخ الحياة العربية هناك .

كانت الحضارة مصقولة ، وللشعر منها جانب متميز ، ولم تجد القوافى تربة خصبة خارج مهدها فى الجزيرة العربية ، كما وجدتها فى هذه البقعة الأوربية النائية ، تقع فى أقصى شمال غرب الإمبراطورية الإسلامية ، أهلها لاتينيون أو قوط ، أو ينتمون فى أجناس أخرى بائدة ، ولغتهم مستعربة ، ومع ذلك أخذ الرحالة القزوينى بما كانوا عليه من سهولة فى قول الشعر ، « وأى فلاح يحرث بأثوار فى شلب ، يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من المعانى » .

كان الشعر أنشودة الحمام بعد التعب ، يقوله الأمير والعامل على السواء ، بعض الأمراء قاله على نحو متفرق ومتفاوت ، وبعضهم — كالمعتمد ابن عباد — تميز فيه ، وكانت حياته نفسها قصيدة ، مأسوية النهاية . وكان لحكم المستنصر خليفة مثقفاً ، وشاعراً مقلا ، يدع سكنه فى غزوة ، ويحن إلى « صبح » حبيبته وحظيته ، ثم زوجه من بعد ، فيترنم بالأبيات الرقيقة التالية ، معزيا نفسه :

عجبتُ وقد ودّعتها كيف لم أمتْ وكيف انثنت عند الفراق يدى معى
فيامقلتى العبرى عليها اسكبى دماً ويا كبدى الحرّى عليها تقطعى

وقاله أناس حظهم من الثراء محدود ، ومن المجد متواضع ، ومن عراقة النسب لا شئ ، وتومئ ألقابهم التى وصلتنا إلى الكثير من هذا ، كابن اللبانة ، أى التى كانت تبيع اللبن ، ومهجة بنت التيانى ، أى الذى كان يبيع التين ، وابن السقاط ، أى الذى كان يبيع السقط من المتاع ، وغالب بن

رباح الحجام ، ومهنة الحجامة لا تحتاج منى إلى تفسير ، وآخرون غيرهم كثيرون .

وكان للمرأة حظ وفير منه ، وهى ميزة فاق بها الأندلس غيره من أصقاع الإمبراطورية الإسلامية ، ولقد أوقف المقرى التلمسانى فصلا كاملا من كتابه «نفح الطيب» على شاعرات الأندلس ، ولو أن ما أورده عنهن كان مقتضبا للغاية ، رغم أنه عد منهن خمسا وعشرين شاعرة ، واذا كن فى جملتهن شاعرات مجيدات ، فى ضوء القليل الذى وصلنا من شعرهن ، فبينهن من بلغت فى مجال الإجادة شأوا بعيداً ، ومن فاقت الشعراء المحترفين ، وقد قدم المقرى لحديثه عنهن بقوله : « وإذ وصلت إلى هذا الموضع من كلام أهل الأندلس ، فقد رأيت أن أذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللائى لهن اليد الطولى فى البلاغة ، كى يعلم أن البراعة فى أهل الأندلس كالغريزة لهم ، حتى فى نسائهم وصبيانهم » .

من بين اللائى ذكرهن المقرى شاعرتان تأتيان فى المقدمة ، براعة فى عالم الشعر ، وتميزا فى دنيا الناس ، وتحررا من مواضعات المجتمع . أما أولاهن فكانت أميرة وابنة خليفة ، وسارت بأخبارها الأيام شاعرة رقيقة ، وعاشقة جريئة ، ونالت من الشهرة فوق ماتتمنى ، وما سبقت فيه معاصريها من الشعراء الرجال ، لأنها اقتحمت عالم المجد عن طريق الحب ، ولم تركب له الكلمة أو البيت أو القصيدة فحسب . وكان لنا معها إلى جانب ابن زيدون روميو وجولييت العربيين ، وتلك هى **ولادة بنت المستكفى** . (١) .

وأما الثانية فهى **حفصة بنت الحاج الركونية** ، ولم تنحدر من بيت ملكى ، وكانت أديبة شاعرة ، و جمعت بين « الجمال والحب والمال » . ورغم أنها لم تحظ فى عصرنا الحديث بما حظيت به ولادة دراسة وشهرة ، لم تكن على أيامها دونها ، كانت ملء السمع والبصر ، تقول الشعر ، وتجهر بمكنون الهوى ، وترد ندوات الأدب ، وتواجه حولها ضواغط الحياة والتقاليد . وغطى حديثها على

---

(١) انظر الفصل الخاص بنونية ابن زيدون فى هذا الكتاب .

شاعرة أخرى معاصرة لها ، رقيقة ولطيفة ، وتلتقى معها فى أكثر من منزع ، وهى **نزهون بنت القلاعى** ، وإن كانت هذه تكبرها عمراً بسنوات قليلة ، وقد فاقتها حفصة ، وفاقت الجميع فى الحقيقة ، فى أن ماروى لها من شعر ، على قلته ، يفوق ماروى لأية شاعرة أخرى .

ولم تكن **حفصة** شاعرة مجيدة فحسب ، وإنما لعبت دوراً سياسياً هاماً تجاوز العقيدة والقول إلى المشاركة فى التدبير والثورة ، وأسهمت ، إن لم نقل دبرت ، فى مؤامرة سرية أوشكت أن تعصف بسلطان الموحدين فى الأندلس : وكانت على صلة وثيقة بعدد من كبار الساسة ، ومن رجال المجتمع فى غرناطة حيث تقيم ، وفى مراكش عاصمة الموحدين حيث استقر بها المقام أخيراً .

وهى إلى جانب أخريات قليلات يمثلن ظاهرة فذة فى تاريخ المرأة المسلمة ، لا فى الأندلس وحده ، وإنما على امتداد دولة الإسلام ، فهى لا تدين بشهرتها للثراء الواسع الذى كانت عليه ، ولا إلى الحسب الرفيع الذى تُنسب فيه ، ومن المؤكد أن كثيرات غيرها من نساء عصرها كن على مستواها مالا وجاهاً وحسباً ، إن لم نقل يتفوقن عليها ، وإنما يعود تقدير التاريخ لها ، إلى أنها امرأة ذات كلمة قوية فى مواجهة رجال أقوياء ، وبعض مافى شعرها من صراحة يمثل على غيرها خطراً يودى بالحياة . إننا معها بإزاء امرأة غير قعيدة البيت ، ولا مهيضة الجناح ، ولا خفيضة الصوت (١) .

وإلى جانب هذا التمرد الاجتماعى فإن مؤرخ الأدب لا يمكن أن يمر بها عابراً ، وهو شىء لم يستطع القدماء أن يفعلوه ، وإذا تجاوزنا **المقرى التلمسانى** ، ولم يكن أندلسياً أصلا ، ولا معاصراً لأيام الإسلام فى الأندلس ، لأنه مغربى ولد فى **تلمسان** ، وأمضى حياته فى **القاهرة** ، وفوق ثراها لقى الله ، وفى مقابرها

---

١ انظر كتابنا : « دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة » . الفصل الخاص « المرأة فى قرطبة من خلال طوق الحمامة » ، ص ٢٢٤ ، الطبعة الثانية : مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٧ .

استقر إلى الأبد ، فجاء حديثه عنها مقتضباً وموجزاً ، فإن **ابن الخطيب** ، وكان مواطنا لها ، وجاء بعدها بقرن من الزمان ، وكان صائب الرأى ، مسئول الكلمة ، يقول عنها : « أديبة أوانها ، وشاعرة زمانها ، فريدة الزمان فى الحسن والظرف ، والأدب واللوذعية » ، ويقول عنها **أبو القاسم الملاحى** ، وهو مؤرخ غرناطى : « كانت أديبة نبيلة ، جيدة البديهة ، سريعة الشعر » . ويقول عنها **ابن دحية** فى كتابه « **المطرب من أشعار أهل المغرب** » : « من أشراف غرناطة ، رخيمة الشعر ، رقيقة النظم والنثر » .

●

دخلت حفصة التاريخ بمواهبها ، وبما كانت عليه من جمال وفصاحة ، وفى المقام الأول لأن حياتها اكتسبت طابعاً مأسوياً ، فقد توزع قلبها رجلان ، كلاهما هام بها حباً ، وتنافساً فى الاستئثار بها ، وكان أحدهما أميراً أندلسياً صغيراً يملك ، كأى حاكم صغير ، حتى الموت والحياة على رعاياه .

ولا يقدم لنا المؤرخون معلومات وفيرة ، بل ولا حتى قليلة عن طفولتها وصباها ، وكل مانعرفه عنها أنها كانت تعيش فى غرناطة ، وتنتسب فى أسرة بربرية ، لم يهتم بها أصحاب التراجم ، وكل مايذكره **ابن دحية** عن أبيها أنه كان غنياً ، ومن أعيان المدينة ، ويبدو لنا من نسبة الركونى أنه ليس من غرناطة أصلا ، وإنما جاءها ، أو أسلافه من قبل ، من قرية صغيرة تدعى ركانة Requena ، على بعد ٦٩ كيلوا متراً إلى الشرق من بلنسية ، وهى منطقة ذات طبيعة ساحرة ، وخضرة ممتدة ، كانت ولا تزال .

ولا نعرف متى وُلدت ، غير أننا لا نستطيع أن نذهب بهذا التاريخ إلى أبعد من عام ٥٣٠ هـ — ١١٣٥ م ، ومن الواضح أنها ولدت فى غرناطة ، وفيها أمضت شبابها ، وكانت غرناطة فى أيامها الأولى تحت حكم المرابطين .

وكغيرها ذهبت إلى المدرسة ، أوجاءها المعلمون إلى البيت ، وكان للمدرسة الابتدائية فى الأندلس مفهوم أفضل مما كان عليه الحال عند المشارقة ، فبينما

هؤلاء يأخذون أطفالهم بالحفظ دون فهم ، كان الأندلسيون يهيئون تلاميذهم فيها للفترة اللاحقة ، فهم يقرأون ويفهمون ويحفظون ، ويجمعون بين القرآن والشعر واللغة ، أى أن الجانب الأدبى من التعليم لم يكن مهملا .

وكان الهدف من تعليم البنت فى الأندلس ، كما هو الحال فى جميع البلاد المتحضرة ، أن تصبح معه لطيفة محببة إلى النفوس ، ولترقية عقلها ، وتكوينها فى الأدب بعامة ، وفى الشعر والموسيقى بخاصة ، وليس فى الحسبان أن تصبح معه عاملة ، أو أن يكون طريقها للعيش ، وكان ذلك متاحاً لها حتى دون تعليم . ويمكن القول بأن الزاد الثقافى الذى عاشت عليه **حفصة** طفولتها وصباها يدخل فى نطاق الأدب بمفهومه فى العصر الوسيط ، أى الإلمام مع كل شئ بطرف ، أو هى الثقافة كما نراها الآن ، وقد حدد لنا **ابن دحية** دورها فى هذا المجال فهو يقول : « إنها كانت تنشد الشعر ، وتكتب النثر فى رشاقة » ، ولم يصلنا من نثرها شئ لنتأكد من قولة صاحب « المطرب فى أشعار أهـــل المغرب » .

ومهما يكن من شئ فقد جاءت حفصة إلى الحياة والمرأة الأندلسية تعيش فترة زاهرة ، جاء بعضها إرثاً من عصر الطوائف ، حين شاعت الحرية ، ومس خيرها ، أوحتى شرها ، الناس جميعاً ، وجاء بعضها اكتساباً من عصر المرابطين ، وعلى غير مايظن عامة الناس ، احتلت المرأة فى أيامهم ، وهم بدو قدموا من الصحراء ، ورجال دين محافظين ، مكانة أعلى مما تحتلها فى أى مكان آخر ، فكانت عندهم بمستوى المرأة فى الأندلس ، أو حتى أرقى شيئاً ، والدور الذى لعبته **زينب النفزاوية الهوارية** ، زوجة **يوسف بن تاشفين** ، وإحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة ، فى دولة المرابطين لا يقل أهمية عن الدور الذى قامت به السيدة « **صبح** » على أيام **الحكم** الثانى زوجها ، أو **هشام** المؤيد ابنها ، أو عن الدور الذى قامت به **اعتماد الرميكية** فى دولة

المعتمد بن عباد . وقد أدى ذلك إلى معارضة عنيفة من جانب الفقهاء ، وهم الذين ألحوا على يوسف بن تاشفين كي يبقى فى الأندلس ويزيح ملوك الطوائف عن عروشهم ، وهم الذين كانوا وراء سقوط دولة المرابطين عندما لحظوا أن النساء يلعبن فيها دوراً أكبر مما يجب ، ومما يراد منهن ، وحين جاء الموحدون على أنقاضهم حدثت ردة ضد حرية المرأة ، وإن لم تستطيع أن تأتى عليها تماماً ، فى الأندلس على الأقل .

هل يمكن القول بأن هذا التطور كان له تأثير على نفسية حفصة ؟ .

على أية حال نحن نلمح أنها ، وبرضى والدها ، كانت تتمتع بحرية كاملة ، وأن والدها كان سعيداً بأنها تستخدم مواهبها ، وتعبر عن ذات نفسها ، ولا عليه بعد ذلك أن يرضى الآخرون أو يغضبوا .

●

عاصرت حفصة كل المحن التى تعاورت غرناطة ، من سقوط دولة المرابطين إلى قيام دولة الموحدين ، وما يصيب المدن خلال هذه الأحداث من فقدان الأمن ، وشح الحياة ، ولم تعرف المدينة هدوءاً تزدهر معه من جديد إلا بانتصار الموحديين نهائياً ، واستقرار دولتهم بها ، عام ٥٤٩هـ — ١١٥٤م ، وليس ثمة شك فى أن أحداث الحروب ، وما يصحبها من فتن كقطع الليل ، تركت فى نفسها وهى الأديبة الأريبة ، الذكية الفطنة ، رقة فى المشاعر وعمقاً فى الإحساس ، واحتقاراً للحياة ، وجرأة على المواقف .

وفى هذه الفترة ، وعمرها يتأرجح حول العشرين ، سوف تلتقى بفتى من بنى سعيد ، وهى أسرة عريقة ، تقيم فى قلعة تحمل اسمها على مقربة من غرناطة ، وشهرت بالعلم والأدب والثراء ، وسوف يدخل التاريخ معها تحت اسم متميز أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد . ولا تعرف كيف التقيا ، ولا أين ؟ ، فما أسهل أن يلتقى شاعر وشاعرة فى مجتمع يطرب للشعر ، ويجل الشعراء ، ويهزه

الإنشاد الجميل . وكان أبو جعفر إلى جانب أنه شاعر رقيق ، وأديب ناثر صاحب لهو وحياة وفلسفة تنم عن أبيقورية متمكنة. وحين استقل أبوه بقلعتهم فى الفترة بين سقوط المرابطين وقدوم الموحدين، اتخذه وزيراً ،واستنابه فى أموره ، فلم يصبر على ذلك، واستعفى فلم يعفه، وعتبت عليه أن يركن إلى الراحة فى مثل هذه اللحظات الحاسمة ، فكتب إليه الابن شعراً :

مولاىَ ! فى أىِّ وقتٍ أنال فى العيش راحه
إنْ لم أنلها وعمرى ما إنْ أنار صباحهْ
وللملاح عيونٌ تميل نحو الملاحه
وكأسُ راحىَ ما إن تملُّ منىَ راحه
والخطبُ عنىَّ أعمى لم يقتربْ لى ساحه
وأنت دونىَ سورٌ من العلا والرجاحه
فاعفنى وأقلنى مما رأيتَ صلاحه
مافى الوزارة حظٌ لمن يريدُ ارتياحه
كلٌ وقالٌ وقيلٌ ممن يطيل نباحَه
أُنسى أتى مستغيثاً فاتركْ — فُديتَ — سراحهْ

فلما قرأ أبوه الأبيات رأى ألا فائدة فى أن يكلفه بما ليس مهيئاً له ، فوقع على ظهر ورقته : « قد تركنا سراح أنسك ، وألحقنا يومك بأمسك».

كان أبو جعفر شاعراً فناناً لم يخلق للإدارة أو الحكم ، أو الحرب والطعن ، يمضى مع لذاذاته دون قيد ، ويستجيب لرغائبه حتى الثمالة ، ويكره أن يرى نفسه أسيراً فى وظيفة ، ولكن ... قد تجنى على المرء مواهبه ! . ذلك أن الأمر لم يكد يستقر للموحدين، ويرسل الخليفة الموحدى فى مراكش ابنه السيد أبا سعيد أميراً على غرناطة ، حتى يطلب هذا ، إرضاء لأهلها ، وضماناً لولائهم ، وزيراً منهم ، من خيرة بيوتاتهم، فلا يجد غير أبى جعفر صاحبنا ، فولاه الوزارة، أو الكتابة بلغة تلك الأيام ، وحاول أبو جعفر أن يستعفى فلم يسمع له،

فضاق بالمنصب ، وكره أن يكون كاتباً لمن يرى نفسه خيراً منه ، وطوى نفسه على مضض .

كان عسيراً أن تصفو الحياة بين أمير قادم من الصحراء ، جافى الطبع ، بدوى الشمائل ، وبين شاعر غزل رقيق الحواشى ، صداح النغم ، يطرب لكل فاتن ، وتهفو نفسه لكل جميل ، وبدأ ما أضمره أبو جعفر فى نفسه سراً مكتوماً ينضح فى شعره .

خرج ذات ليلة مع رفقة له ، فى رحلة صيد ، وكان اليوم غائماً وباردأ ، ولما أشتد البرد مالوا إلى خيمة حارس البستان ، وجعلوا يصطلون ويشربون على ما اصطادوا ، فحملت أبا جعفر بقية من سكر على أن يصف يومه ، ويبوح بما فى طوايا نفسه :

ويومٍ تجلّى الأفقُ فيه بعنبرٍ ... من الغيم لُذنا فيه باللهو والقَنَص
وقد بقيتْ فينا من الأمس فضلةٌ ... من السكر تُغرينا بمنهبِ الفُرَص
ركبنا له صبحاً وليلاً وبعضنا ... أصيلاً وكلٌ إن شدا جلجل رقص
وشُهبِ بُزاةٍ قد رجمنا بشُهبها ... طيورا يُساغ اللهوُ إن شكت الغصص
وعن شفقٍ تغرى الصباح أو الدجى ... إذا أوثقت ماقد تحرّك أو قمص
وملنا وقد نلنا من الصيد سُؤلنا ... على قَنَصِ اللذاتِ والبردُ قد قرص

ثم يختم الأبيات بقوله :

فقل لحريصٍ أن يرانى مقيّداً ... بخدمته لا يُجعل البازُ فى القفص
وما كنتُ إلاطوع نفسى فهل أُرى ... مطيعاً لمن عن شأوِ فخرىَ قد نقص

فكان من حفظ هذين البيتين ، ووشى بهما إلى أمير غرناطة ، فعزله عن منصبه أسوأ عزل .

●

لم يكن جمال حفصة وحده هو الذى شد إليها قلب أبى جعفر ، فلا شك

أن غرناطة كانت حافلة بالجميلات، أولئك اللائى وصفهن لنا لسان الدين ابن الخطيب بعد قرنين من الزمان بأنهن « جميلات ساحرات، ناعمات الأجسام، مرسلات الشعور، نقيات الثغور، طيبات النشر، خفيفات الحركة، نبيلات الكلام، حسناوات المحاورة، يعنين بزينتهن عناية بالغة ». وإنما كانت تتمتع إلى جانب جمالها بمزايا عقلية وعاطفية فائقة، شدت إليها انتباه هذا الرجل المتحضر الرقيق، لقد كانت شاعرة عذبة، وفتاة جريئة، ووجدت فيه فتى أحلامها، أدبا وثراء، وعراقة أسرة، وإقبالا على الحياة، فمدت له حبل الهوى بلا مواربة، تود أن تراه فتعرض عليه أن يجئ، فإن لم يفعل ذهبت هى، وتصف جمالها، وتلح عليه: أنا فى انتظارك ياجميل (١)!.

وبدأت أشعارها تتردد فى المجالس، وداخل البيوت وراء الأسوار، وتحفظها الفتيات يجدن فيها أنفسهن أو مايطمحن إليه، وأصبحت الشاعرة سيدة مجتمع مرموقة، تطلب منها الأوانس أن تخط لهن فى دفاتر ذكرياتهن شيئاً يحتفظن به، على نحو مايفعلن اليوم مع كبار الفنانين. وتسألها فتاة من أسرة عريقة أن تكتب لها شيئاً، فتخط لها بيتين من الشعر، تمدح فيهما جمال السائلة وحسبها، وترجوها أن تصفح عن رداءة خطها وكلمها (٢).

لا نعرف كثيراً عما كان يجرى بين شاعر وشاعرة ألف بينهما الحب، وربطت بين قلبيهما الصبوة، وهو أمر بدهى، غير أشعار متفرقة هنا وهناك تومئ إلى أن الصلة بينهما كانت قوية، وأن حفصة كانت تتحمل مسئوليتها كاملة إزاء حبها، وعبرت عن جوانب منها كما لم تعبر عنها أية شاعرة عربية أخرى، ونعرف من أشعارهما أنها باتت مع أبى جعفر فى بستان بحوْر مؤمل، على مقربة من غرناطة، وهو ضاحية سراة القوم، « على مايبيت به الروض

---

(١) الأبيات رقم ١، من ديوانهما الملحق بهذه الدراسة.
(٢) البيتان رقم ١٥.

والنسيم ، من طيب النفحة ونضارة النعيم » . فلما مضت كتب إليها أبو جعفر يذكرها وينتظر ردها ، ولكن حفصة لا تشاركه تفاؤله ، إنها تعرف بغريزة الأنثى أن الناس غيرى من حبهما ، وأن حسن الظن ليس رشداً ، وبهذا المعنى ترد على رسالته شعراً (١) .

لقد عرف الأدب العربى المرأة مطلوبة لا طالبة ، وموصوفة لا واصفة ، مهبط آمال الشعراء ، ومناط غايتهم ، غير أن الأدب الأندلسى تميز بخاصية أن تكون المرأة منَ الشاعر ، أو من المحب بعامة ، ما كانه الشاعر أو المحب منها فى المشرق ، تبوح بمكنون فؤادها ، وتسترجع لحظات صفوهما ، وتتغزل فيمن تحب ، ولا تتردد فى أن تصف قبلة لأبى جعفر فى شعر رقيق صريح ، بأنها رشفت معهاريقا أرق من الخمر ، وهى تقول ذلك عن تجربة ، لا تدعيها ولا تكذب فيها ، ولا تنتزعها من الخيال (٢) . وتغار على حبيبها وتصف لنا غيرتها فى بيتين من الشعر ، هما من أجمل ماعرف الأدب العربى تصويراً لهذه الفكرة ، فهى تغار عليه من الرقيب ، ومن نفسه ، وزمانه ومكانه ، ولا تجد له مكاناً تصونه فيه ، إلى يوم القيامة ، غير عيونها (٣) .

●

لكن ترنيمة الحب ووصله لم تدم لهما صافية ، اقتحم عليهما بلا إذن عالمَ حبهما الجميل أميرُ غرناطة ، السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن ، ومعه سلطان الحاكم وبطشه ، ولا أستبعد أن يكون هواه لحفصة رغبة مكتومة فى أن يكيد لأبى جعفر ، فلم يكن للأمير فى مجال الشعر العاطفى مايشده إلى هذه الشاعرة الغردة ، ولم يكن له فى مجال الفكر مايعجبه من آرائها المتحررة ، وكان له فى سيل الجوارى المتدفق على غرناطة مندوحة إلى الأنثى لو أراد .

---

(١) أبيات ابى جعفر وأبياتها في القطعة رقم ٢ من الديوان الملحق بالدراسة .
١) الأبيات رقم ٨ فى الديوان الملحق بالدراسة .
(٢) الأبيات رقم ٥ من الديوان .

ولا بد أن حفصة عانت كثيراً من ملاحقة الأمير ، خشية على أبى جعفر أكثر من خشيتها على نفسها ، فهى تعرف مابينهما ، تعرف مايكنه الأمير لأبى جعفر من حقد ، وماتنطوى على نفس هذا من احتقار للأمير ، وما عليه الحياة فى غرناطة من سهولة القتل والتآمر والتخلص من الأعداء ، وراودت نفسها ، وابتعدت عنه قرابة شهرين لا يراها ولا تراه ، واستبد به الشوق فكتب إليها ، دون أن يذكر اسمها ، ولكنه يناجى حبيباً ، وليس غيرها له ، لقد برح به الشوق ، وثقل عليه الصبر ، وطال ليله ، ويستنجزها أن تفى بما وعدت اليوم لا غدا ، وترسل إليه ، تبدى رأيها وتعتذر ، وتعتب عليه أن يتحدث عن السأم والملل ، وألا يدرك عذرها ، وسبب انقطاعها (١) .

وتقع حفصة بين أمرين أحلاهما مر ، وأيسرهما عسير ، أمير يلاحقها بكل ما فى قدرته ، ويطوقها بكل مافى سلطته ، وشاعر غزل رقيق الحواشى ، تسعد معه ، وتساقيه الهوى ، وتحقق ذاتها إنثى وإنسانة ، وتحاول أن ترضى الأمير ، وأن تكتب إليه شاعرة ، وفى الوقت نفسه تتجافاه عاشقة ، تكتب إليه تهنئه فى يوم عيد ، تناديه « ياابن الخليفة » ، وتومئ إليه فى كلام خبىء يفهم على أكثر من وجه ، وهى التى اعتادت أن تكون صريحة لا تلمح ولا تكنى ، بأن العيد أتاه ، ومعه من يهوى منيباراضياً ، ليعيد ماانقضى من لذاته وتصرم ، نعم ابن الخليفة يهوى ، ولكن أين هى من هذا الهوى ، صمتت تماماً (٢) .

وتجتاح أبا جعفر نوبة من قلق ، والحب احتواء ، والعاشق غيور ، فيقول لها محقراً شأن الأمير: ماتحبين فى هذا الأسود ، وأنا أقدر أن أشترى لك من سوق العبيد عشرة خيراً منه . وتبلغ قولته الأمير ، أو هكذا توقع أبو جعفر ،

---

١. أبيات أبى جعفر ، وردها عليه فى الديوان الملحق بالدراسة ، رقم ٤ .
٢. الأبيات رقم ١٤ .

فاستشعر النهاية ، وأصبح موزع القلب ، خائفاً مضطرباً ، يتوقع المهالك فى كل خطوة ، ويبحث عن **الأمن بأى** ثمن ، وصوّر لنا مأساته هذه أبلغ تصوير :

من يشترى منى الحياةَ وطيبَها ... ووزارتى وتأدّبى وتهذُّبى
بمحلّ راع فى ذُرى ملمومةٍ ... زَويتْ عن الدنيا بأقصى مَرْتب
لا حكمَ يأخذُه بها إلا لمن ... يعفو ويرؤف دائماً بالمذنب
فلقد سئمتُ من الحياة مع امرىء ... مُتغضّب مُتغلّب متربّب
الموتُ يلحظنى إذا لاحظتُه ... ويقومُ فى فكرى أوان تجنّبى
لا أهتدى مع طول ماحاولته ... لرضاه فى الدنيا ولا للمهرَب

وينتهز الأمير فرصة تمرد محمد بن مردنيش فى شرقى الأندلس ، وانضمام أحد أفراد أسرة بنى سعيد إليه ، وهو عبد الرحمن بن عبد الملك ، فيلقى عليهم القبض جميعاً ، ومن بينهم أبو جعفر ، وقتله صبراً فى مدينة مالقة عام ٥٥٩ هـ — ١١٩٨ م ، وحزنت حفصة عليه ، لبست السواد علانية ، وبكته جهرة ، ورثته فى أبيات حفظ لنا التاريخ ثلاثة أبيات منها (١) .

وعجز السيد أبو سعيد أن يجد إلى قلبها طريقاً ، وضاقت هى بالحياة فى غرناطة ، وقد شهدت مصرع حبها ، فرحلت إلى مراكش عاصمة الموحدين ، ولقيت الخليفة ، واستنشهدها شعرها ، فأنشدته أبياتاً ثلاثة تطلب فيها الأمان والمأوى ، فحقق لها ماأرادت ، واختارها أستاذة لبناته ، وأمضت بقية حياتها فى مراكش ، وفى عاصمة الموحدين لقيت الله آخر عام ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م ، أو أوائل العام الذى تلاه ، وبذلك طويت صفحة جميلة من أروع صفحات الحب فى تاريخ الأدب العربى .

●

تدور قصائد حفصة حول التعبير عن مشاعرها ، ويجئ تعبيرها واضحاً

---

(١) الأبيات رقم ١٣ .

صريحاً ، لا إيماء فيه ولا تورية ، تدعو حبيبها أن يزورها ، فإن لم يستطع زارته هى ، ولا تتردد فى أن تصف بعض جمالها ، وأن ثغرها عذب ، وشعرها مرسل ، وتخاف العذال والوشاة ، لأن الحب العظيم يثير من سخائم النفوس الأرضية بقدر ما يعظم ويسمو ، وهى فى هذا على النقيض من أبى جعفر نفسه ، إنها بحاسة الأنثى تشك وترتاب ، وهو فى جرأة الرجل المحب مع لحظاته الحلوة له الساعة التى هو فيها ولا يفكر فى غد .

ولا بأس أن تعابث أبا جعفر بأبيات من شعرها ، وهو فى رفقة من أصحابه يسمرون ، ترسل بها وتنتظر ، ويهرع إليها تغمره الغبطة ، فقد رأى الأبيات بقلبه قبل عينه ، وتأملها بعاطفته قبل عقله . وكما عتبت ولادة من قبل على ابن زيدون أنه مال إلى جاريتها السوداء ، وكان للسوداوات نصيب من غاية العشاق وكن هدفاً ، تعتب حفصة هنا على أبى جعفر أنه علق بجارية سوداء أيضاً . ولكن شتان ما بين عتب **حفصة** وكله رقة ودل ، وبين عتب **ولادة** وفيه تعال وخشونة ، ذلك أن حفصة كانت تحب أبا جعفر حقاً ، أما ولادة فكانت تحب نفسها أولا ، فيما أرى ، فهى متعالية ، عنيفة ، تتصرف كأميرة ، حتى حين تعاتب محباً لها .

وتصوير حفصة للجارية السوداء فيه ظرف ورقة ، فهى ظاهراً لا تسىء إليها ، وفيما وراء اللفظ مباشرة قالت كل شىء ، فالجارية السوداء مثل الليل ، وهى حديقة خالية من النوار والزهر .

وفى صورها الشعرية لا تخرج عن المألوف فى الشعر العربى بعامة ، ولكنها تتكأ على الطبيعة دائماً ، كبقية شعراء الأندلس من معاصريها ، فالرياض مهبط

---

(١) انظر الفصل الخاص بنونية ابن زيدون فى هذا الكتاب .
(٢) الأبيات رقم ٧ من الديوان الملحق بالدراسة .

لقائها مع حبيبها ، والنهر يصفق لحبهما ، والقمرى يغرد ، وإذا أرسلت سلامها إلى أبى جعر نازحاً ، فهو يفتح الكمام ، وينطق ورق الغصون ، ونلتقى عندها بما ابتدعه شعراء وطنها ، والمعاصرون لها بخاصة ، من ألوان التشبيه الجديد ، حين خرجوا به من رتابته المشرقية ، ودفعوا فى شرايينه بدم جديد ، لم يتجاوزوه تماماً ، ولكنهم جاءوا به فى صورة مستحدثة مقبولة ، فخدها ليس كالورد ، وإنما يفضحه ، وثغرها ليس كاللآلى ، وإنما يكشف زيفها . وتتكأ على التراث ، فحبيبها جميل ، وهى بثينة ، ولحاظها سحر بابل ، ولها جيد الغزال .

وشعر حفصة جيد فى مجمله ، موسيقاه رقيقة ، ووقعها جميل ، ولكنه فقير فى الأفكار عامة ، قليل الصور ، وما جاء منها كان بسيطاً ، وإن لائم موضوعه ، وكان فى مكانه جميلا .

غير أن ما وصلنا منه قليل للغاية ، لا يتجاوز ثلاثة وخمسين بيتاً فيما وجدت عثرت عليها متناثرة فى تحفة القادم لابن الأبار ، والمغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ، ورايات المبرزين له أيضاً ، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية ، والإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ، ومعجم الأدباء لياقوت ، ونفح الطيب للمقرى ، واللاحق منهم ينقل عن السابق ، وبعيد فى تصورى أن يكون هذا هو كل إبداع شاعرة عاشقة ومتحررة ، وكانت فى سعة من العيش ، ومكانة اجتماعية مرموقة تحميها من الصمت ، ولعل أنانية الرجل ذهبت بالجانب الأكبر من شعرها حين صمت عنه ، أو لعل الأحداث والكوارث أودت به فيما بعد ، وربما يعود السبب إلى حفصة نفسها ، فى غمار الأحداث التى ألمت بها ، ففقدت حبيبها ، وهاجرت بعيداً عن وطنها ، إلى أرض لا تعرف فيها أحدا ، زهدت فى أمسها كله ، وأجمل ما فيه شعرها ، وحياتها شاعرة .

وأياً ما كان الأمر فقد ألحقت ما وجدت لها من شعر بهذه الدراسة تيسيراً للراغبين فى قراءته أو دراسته .

— ١ —

أزورك أم تزور ؟

أزوركَ أم تزورُ فإنّ قلبى ‌‌ ‌ إلى ماتشتهى أبداً يميل
فثغرى موردٌ عذْبٌ زلالٌ ‌ ‌ وفرْعُ ذؤابتى ظلّ ظليلُ(١)
وقد أمّلتُ أن تظما وتضحى ‌ ‌ إذا وافى إليك بىَ المقيلُ(٢)
فعجّلْ بالجوابِ فما جميلٌ ‌ ‌ إباؤك عن بثينةَ ياجميلُ

— ٢ —

لا تحسن الظن !

واتفق أن بات أبو جعفر ابن سعيد معها فى بستان بحور مؤمل ، على مايبيت به الروض والنسيم ، من طيب النفحة ونضارة النعيم ، فلما حان الانفصال ، قال أبو جعفر وكان يهواها ، وكتب بها إليها بعد الافتراق ، لتجيبه على عادتها فى ذلك :

رعىَ اللهُ ليلاً لم يرُحْ بمذمّم ‌ ‌ عشيةَ وارانا بحوْرِ مؤمّلِ
وقد خفقت من نحو نجد(٣) أريجةٌ ‌ ‌ إذانفحتْهبّتْ بريّا القرنفل
وغرّد قمرْىٌ على الدوح وانثنى ‌ ‌ قضيبٌ من الريحان من فوق جدول

---

(١) الفرع : الشعر التام — الذؤابة : شعر مقدم الرأس .
(٢) المقيل : القيلولة .
(٣) نجد وحور المؤمل من أجمل ضواحى غرناطة الاسلامية ، ومسكن الطبقة العالية ، ومؤمل الذى ينسب اليه الحور كان مولى لباديس بن حبوس امير غرناطة .

تَرى الروْض مسروراً بماقدبداله   عناقٌ وضم وارتشافُ مُقبَّل

فكتبت إليه بقولها :

لعمرُك ماسُرّ الرياضُ بوصلنا(١)   ولكنه أبدى لنا الغلّ والحسدْ
ولا صفّقَ النهرُ ارتياحاً لقربنا   ولا غرّدَ القمرى إلا لما وجدْ(٢)
فلا تُحسن الظنّ الذى أنت أهلهُ   فما هو فى كل المواطن بالرَشدْ
فما خلت هذا الأفقَ أبدى نجومه   لأمر سوى كيما تكون لنا رصدْ

— ٣ —

زيارة مفاجئة

كان أبو جعفر يوماً فى منزله مع من يحب أن يخلى معه من الأجواد الكرام ، على راحة سمحت بها غفلات الأيام ، فلم يشعر إلا بالباب يضرب ، فخرجت جارية تنظر من الضارب ، فوجدت امرأة ، فقالت لها : ما تريدين ؟ فقالت : ادفعى لسيدك هذه الرقعة ، فجاءته برقعة فيها :

زائرٌ قــد أتى بجيدِ الغــزالِ   مُطلعٌ تحت جُنحه للهلالِ
بلحاظٍ من ســحر بابلَ صيغتْ   ورُضابٍ يفوقُ بنتَ الدوالى(٣)
يفضحُ الوردَ ماحوى منه خدٌ   وكــذا الثغرُ فاضحٌ للآلى
ما ترى فى دخولهِ بعد إذن   أو تراه لعارضٍ فى انفصال

فعلم أنها حفصة ، وقام مبادراً للباب ، وقابلها بما يقابل به من يشفع له حسنه وآدابه والغرام به ، وتفضله بالزيارة دون طلب ، فى وقت الرغبة فى الأنس به .

---

(١) فى الاحاطة وصالنا .
(٢) فى الاحاطة ولا مدح .
(٣) الدوالى : العنب الأسود ، وبنت الدوالى الخمر تأخذ من عصيره .

— ٤ —

لو كنت تعرف عذرى !

طلب منها أبو جعفر بن سعيد أن تلقاه ، فمطلته قدر شهرين ، فكتب لها :

يامن أُجانبُ ذكرَ اسمه وحبِّى علامهْ
ما إن أرَى الوعد يُمضىَ والعمرُ أخشى انصرامهْ
اليومَ أرجوكَ لا أن تكون لى فى القيامه
لو قد بَصُرتَ بحالى والليل أرخى ظلامه
أنوحُ وجداً وشوقاً إذ تستريح الحمامهْ
صبٌ أطالَ هواه على الحبيبِ غرامه
لمن يتيهُ عليهِ ولا يرد سلامهْ
إن لم تُنيلى أريحى فاليأسُ يثنى زمامه

فأجابته :

يامُدعى فى هوَى الحسنِ والغرامِ الإمامهْ
أتَى قريضُكَ ، لكنْ لم أرضَ منه نظامهْ
أمدّعى الحبَّ يَثنى يأسُ الحبيبِ زمامه؟
ضللتَ كل ضلالٍ ولم تُفدْكَ الزعامهْ
مازلتَ تصحبُ مذكُنتَ فى السباقِ السلامهْ
حتى عثرتَ وأخجلتَ بافتضاحِ السآمه
باللهِ فى كل وقتٍ يُبدى السحاب انسجامهْ
والزهرِ فى كل حينٍ يشقُ عنه كمامهْ
لو كنتَ تعرفُ عذرى كففتَ غَرْبَ الملامهْ

— ٥ —

غيرة !

أغارُ عليكَ من عينَيْ رقيبى ومنكَ ومن زمانكِ والمكانِ
ولو أنّى خبأتُك فى عيــونى إلى يوم القيامةِ ما كفا

— ٦ —

تهنئة

وكتبت إلى أبى جعفر تهنئه ، وقد استوزره عثمان بن عبد المؤمن ملك غرناطة :

رأستَ فمازال العُداةُ بظُلمهمْ وعلْمهمُ النامى يقولــون مارأسْ
وهل منكرٌ أن سادَ أهل زمانه جموحٌ إلى العليا حرونٌ عن الدنسْ

— ٧ —

عتاب !

وكتبت إليه ، وبلغها أنه علق بجارية سوداء أسعت له من بعض القصور فاعتكف معها أياماً وليالى ، بظاهر غرناطة ، فى ظل ممدود ، وطيب هوى مقصور وممدود :

ياأظــرفَ الناسِ قبل حالٍ أوقعــه نحـــوه القدرْ
عشــقتَ ســوداءَ مثل ليلٍ بدائعُ الحُســْنِ قد سترَ
لاَ يظهرُ البشــرُ فى دُجاها كلاّ ولا يُبصر الخفر
باللهِ قــلْ لى وأنت أدرى بكل مَن هــامَ فى الصور
مَن الذى هام فى جنانٍ لا نُوار فيه ولا زهـــر

فكتب إليها بأظرف اعتذار وألطف أنوار :

لا حكمَ إلا لآمرٍ ناهٍ له من ذنبه معتذر
له محيَّا به حياتى أعيذ مداه بالسورْ
كصحبة العيدِ فى ابتهاجٍ وطلعة الشمس والقمرْ
سعدُه لم أملْ إليه إلا اطرافاً له خبرْ
عدمتُ صُبحىَ فأسودَ عشقى وانعكس الفكر والنظر
إنْ لم تلُح يانعيم روحى فكيفَ لاَ تفسُدُ الفِكرْ

— ٨ —

قبلة !

ثنائى على تلك الثنايا لأننى أقول على علمٍ وأنطق عن خُبرِ
وأُنصفها لا أكذبُ الله إننى رشفتُ بها ريقاً أرق من الخمرِ

— ٩ —

إذا لم تستطيع الزيارة

سار شعرى لك عنى زائراً فأعِرْ سمعَ المعالى شَنْفَهُ(١)
وكذا الروضُ إذا لم يستطعْ زوْرةً أرسلَ عنه عَرْفه

(١) الشنف : القرط .

— ١٠ —

سلامٌ على نازح

سلامٌ يُفتّحُ فى (١) زهرهِ الــكمامَ وُينطقُ وُرْقَ الغصونْ
على نازحٍ قد ثوى فى الحشا وإنْ كان تحرم منه الجفونْ
فلا تحسبوا البُعدَ ينسيكمُ فذلك واللهِ مالا يكون

— ١١ —

حبيبة ساهوة

سلو البارقَ الخفّاقَ والليلُ ساكنٌ أظلّ بأحبابى يذكّرُنى وَهنا
لعمرى لقد أهدى لقلبىَ خفقةً وأمطرنى(٢) مُنْهَلٌ عارضه الجفنا

— ١٢ —

أنت نجم !

ولو لم تكن نجماً لما كان ناظرى وقد غبتَ عنه مظلماً بعد نوره
سلامٌ علىَ تلك المحاسنِ من شجٍ تناءتْ بنُعماهُ وطيبِ سروره

— ١٣ —

رثاء وحداد !

هدّدونى من أجل لبس الحدادِ لحبيب لى أردوهُ بالحدادِ
رحم اللهُ من يجود بدمعٍ أو ينوح على قتيل الأعاد
وسقته بمثلٍ جودٍ يديه حيث أضحى من البلاد الغواد

---

(١) فى المغرب عن .
(٢) فى المغرب امطر عن .

— ١٤ —

تهنئة بيوم عيد

وكتبت إلى السيد أبي سعيد (١) ملك غرناطة تهنئه بيوم عيد:

ياذا العُلا وابن الخليفةِ والإمامِ المرتضى
يهنيكَ عيدٌ قد جرى فيه بما تهوى القضا
وأتاكَ من تهواه في قيدِ الإنابة والرضا (٢)
ليُعيدَ من لذّاته ماقدَ تصرّمَ وانقضى

— ١٥ —

غُضى جفونكِ !

وسألتها أخت الوزير أبي بكر بن يحيى بن محمد بن عمر الهمدانى إلى حفصة أن تكتب لها شيئاً بخطها فكتبت :

ياربّةَ الحسنِ ، بل ياربّةَ الكرمِ غُضّى جفونَكِ عما خطه قلمى
تصفّحيه بلحظِ الود منعمة لا تحفلى برديء (٣) الخطِ والكلمِ

— ١٦ —

أمنية

أنشدتْ أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على ارتجالا بين يديه :

ياسيد الناسِ ياآمنْ يؤمّلُ الناسُ رِفدَهْ

---

(١) فى المغرب عثمان بن عبد المؤمن .
(٢) البيت فى المغرب .
وأتاك من تهواه في طوع الاجابة والرضا
(٣) فى الاحاطة بقبيح .

امنن على بطرسٍ(١) يكون للدهرِ عُدهْ
تخط يمناك(٢) فيه: الحمدُ للهِ وحده(٣)

(١) فى التحفة بصك .
(٢) فى التحفة تخط بمينك .
(٣) الشطر الاخير من هذا البيت كان شعار دولة الموحدين .